مؤتمر الدوحة الرابع حول الحوار بين الأديان

الدوحة (قطر) ٢٥-٢٧ نيسان/ابريل ٢٠٠٦

"الدين والمرأة والأسرة"

محاضرة الأب الدكتور هادي محفوظ

أمين عام مشارك في مجلس كنائس الشرق الأوسط

أستاذ في جامعة الروح القدس – الكسليك (لبنان)

أعالج في هذه المداخلة موضوع "الدين والمرأة والأسرة" من وجهة نظر مسيحيّة. ولطبيعة الموضوع، سوف أقسم مداخلتي إلى قسمين: أوّلا: الدين والمرأة، ثانيًا: الدين والأسرة.

أوّلاً – الدين والمرأة

إنّ التفكير حول موضوع الدين والمرأة يعود بنا إلى نصوص الكتب المسيحيّة المقدّسة والى التقليد والممارسات والى المواقف الرسميّة عند المسيحيّين. سوف أوجز أوّلاً بعض المواقف العامّة تجاه المرأة، في تاريخ المسيحيّة، قبل أن أرسي التفكير على أسس أصفها بالرسميّة، وأعني بها الكتاب المقدّس ومواقف السلطات الكنسيّة.

١ – مواقف عامّة وتقاليد وممارسات

تتنوّع المواقف تجاه المرأة في تاريخ المسيحيّة، ولا شكّ في أنّ قسمًا كبيرًا من هذه المواقف هي وليدة إمّا الكتاب المقدّس وإمّا السلطات الكنسيّة التعليميّة، وهذا ما سوف نتطرّق إليه لاحقًا، وإمّا تيّارات فلسفيّة أو تقاليد يفرضها واقع معيّن في زمان معيّن أو في منطقة جغرافيّة محدّدة. ونرى تباينًا بين هذه المواقف. فهناك المدافعون عن المرأة والداعون إلى احترامها الاحترام الشديد، مثل رهبان شدّدوا على أهميّة تكريم المرأة، لأنّه في حشا امرأة

تجسّد ابن الله. في هذا الإطار، لا شكّ في أنّ شخص مريم العذراء أثّر كثيرًا على تكريم المرأة في العموم لما كان لها من منزلة خاصة، طوال قرون، وحتى يومنا هذا، في كثير من الكنائس المسيحيّة.

كما إنّ هناك بعض المفكّرين المسيحيّين الّذين نظروا إلى المرأة نظرة سلبيّة جعلتها دون مستوى الرجل. ويعزو الكثيرون هذه المواقف إلى تأثر أصحابه بتيّارات فلسفيّة تتعارض أصلا مع التفكير المسيحيّ.

كما إنّ ممارسات عديدة لا زالت حاضرة في بعض الكنائس، لا تسمح للمرأة من مزاولة أعمال ، داخل الكنيسة، انطلاقًا من مفهوم خاصّ للطهارة والنجاسة.

في الوقت عينه، دخلت المرأة، خاصّة في الكنائس البروتستانتيّة، المعترك الكنسي بشكل مميّز، فصار بامكانها أن تصبح كاهنة، أو قسيسة وراعية لشعب الله. في المقابل، لا تسمح الكنائس الكاثوليكية والكنائس الاورثوذكسية بسيامة المرأة كاهنة.

كما نتيقّن من هذا العرض السريع، إنّ النظرة إلى المرأة والى منزلتها ودورها وطبيعتها، تتبدّل، خارجًا عن الكتاب المقدس وعن المواقف الرسميّة، وفق معايير فلسفيّة أو تقليديّة ليس من السهل تجاهلها، حتى لو كان المبدأ الإيماني مغايرًا.

من هذا المنطلق، علينا أن نقرأ الكتاب المقدّس، ونتطرّق إلى تعاليم رسميّة عند المسيحيّين لنتبيّن، بشكل أفضل، الموقف المسيحيّ تجاه المرأة.

٢ — في نصوص الكتاب المقدس

من أجل تحديد الموقف المسيحي من المرأة، من خلال الكتاب المقدس، سوف أستحضر موقف يسوع في الأناجيل وموقف بولس في رسائله، لما لهذين الموقفين من تأثير مباشر على كلّ فهم صحيح للموقف المسيحي.

لا بدّ من التنويه أوّلاً من أنّ الكتاب المقدس، عند المسيحيّين، يشمل العهد القديم، بما فيه من حضور للمرأة، بدءًا من سفر التكوين، حيث تدعى المرأة والرجل من خلال الجذر الواحد (إيشّا، إيش)، وصولاً إلى كتب التاريخ والأنبياء والكتب الحكميّة. فلا شكّ في أنّ

26-APR-2006 17:05 P.33/38

مفهوم المسيحيّة للمرأة قد تأثّر بما يحويه العهد القديم، وبالتقليد اليهوديّ في العموم. لكنّ حصر الكلام في العهد الجديد يُبرّر بكون هذا الأخير، بالنسبة للمسيحيين، يكشف المعنى الحقيقيّ والنهائي للعهد القديم.

فيسوع استقبل نساء وكنّ يتبعنه (لو ٨: ١-٣). وغفر لخاطئات (لو ٧ ؛ يو ٨). وشفى مترفة، مبيّنا أنّ الطهارة الحقيقيّة تكمن في الإيمان به. وقدّم كاتبو الأناجيل كثيرًا من الروايات في ثنائية رجل – امرأة، مُظهرين همًّا كبيرًا بأن يشعر كلّ رجل وكلّ امرأة، معًا، وكلّ على حدة، أنّ كلاً منهما، على حدّ سواء، موضوع محبّة الله في يسوع، وموضوع تصميمه الخلاصيّ. مثالاً على ذلك: سمعان الشيخ وحنّة في الهيكل يعلنان عن يسوع (لو ٢: ٢٥-٣٨)؛ إحياء ابن ارملة نائين (لو ٧: ١١-١٧) وإحياء ابنة يائيرس (لو ٨: ٤٠-٥٦)؛ شفاء المرأة الحدباء (١٣: ١٠-١٧) وشفاء مصاب بداء الاستسقاء يوم السبت (لو ١٤: ١-٦)؛ الراعي الذي يخرج للتفتيش عن الخروف الضائع (لو ١٥: ٤-٧) والمرأة التي تفتّش عن الدرهم الضائع (لو ١٥: ٨-١٠)؛ الخ.

أمّا من ناحيّة بولس الرسول، فأعتقد أنّ الآية التي يوردها في غل ٣: ٢٨ تلخّص المبدأ اللاهوتي المسيحيّ الّذي هو على علاقة مباشرة بالمفهوم المسيحيّ للمرأة: "فلا يهوديّ بعد ولا يونانيّ، لا عبد ولا حرّ، لا ذكر ولا أنثى، فإنّكم جميعًا واحدٌ في المسيح". ونرى انعكاسًا لهذا المبدأ الإيمانيّ، عند بولس، في الطريقة التي يتوجّه بها إلى نساء من الجماعات التي أسّسها، مثل فيبة واكيلا وغيرهما.

قد تتبادر إلى الذهن حالاً نصوص من بولس الرسول، تبدو وكأنّها تناقض ما قيل أعلاه. مثلا، قصّة عدم كشف رأس النساء في ١كور ١١: ٢-١٦. إنّ فهم هذا النصّ يتطلّب قراءة متأنية لإطاره الشامل وللاهوت بولس الرسول. فقد اعتبر بعض الباحثين أنّ ما يدعو اليه بولس في هذا النص، هو تصفيف الشعر وعدم تركه مهدلاً، لما في ذلك من علامات عن تصرّف المرأة في العموم.

أو مثلاً، ضرورة صمت النساء في الكنائس (١كور ١٤: ٣٣-٣٥). إنّ ما يدعو بولس النساء اليه هنا يفهم جيّدا على ضوء التعليم النبوي الذي اكده لهنّ في الرسالة عينها

26-APR-2006 17:05 P.34/38

(١كور ١١: ٥). فيفسّر بعض الشرّاح هاتين الآيتين على أنّهما من اقوال بعض الكورنثيين التي ينقضها بولس في الآية ٣٦، بينما يعتبر البعض، على ضوء الحضارة الرومانيّة، أنّ بولس يدعو النساء إلى الصمت لكي تكنّ في وفاق مع ازواجهنّ ولا تسألن رجالاً آخرين.

أو مثلاً أيضًا، رسالتا كولسي وافسس اللتان تدعيان النساء إلى الخضوع لأزواجهنّ. لكنّ الخضوع هنا هو خضوع للرجل كما تخضع الكنيسة للمسيح، أي باتحاد كامل وبمحبة. فليس في ذلك، بالطبع، نظرة سلبيّة تجاه المرأة، بل انّ لا فرق بينها وبين الرجل امام الربّ. ومن الملفت أنّه في الرسالة إلى أفسس، يتابع الكاتب فيقول: "أيّها الرجال، أحبّوا نساءكم، كما المسيح أيضا أحبّ كنيسته، فبذل نفسه عنها" (اف ٥: ٢٥).

٣ – مواقف رسميّة

تعكس المواقف الكنسيّة الرسميّة، تعليم الإنجيل والعهد الجديد. وتتوافق الكنائس، بمجملها، على مبدأ احترام المرأة والدفاع عن حقوقها، حتى لو تفاوتت فيما بينها، لأسباب اجتماعيّة أو تقليديّة أو لأسباب أخرى، طريقة معاملة المرأة، أو طريقة تطبيق المبادئ الإيمانيّة. سوف أعود في هذا المقطع إلى البابا يوحنا بولس الثاني، والى نصوص من رسالتين له: "رسالة إلى النساء" و"كرامة المرأة".

فيؤكّد البابا يوحنا بولس الثاني أنّ الكنيسة تولي هي أيضًا عنايتها الخاصة بالاسهام في الدفاع عن كرامة النساء ودورهنّ وحقوقهنّ (رسالة عدد ١).

فالكنيسة "ترغب في أن تشكر الثالوث الأقدس من أجل "سرّ المرأة" وكلّ امرأة، على ما ينطوي عليه البعد الابدي لكرامتها الانثوية وعلى "عجائب الله" التي تتحقق فيها وبواسطتها، عبر تاريخ الاجيال البشرية" (كرامة المرأة، عدد ٣١).

"إنّ فعل الشكر الذي نرفعه إلى الرب من اجل قصده في دعوة المرأة ورسالتها في العالم يغدو أيضًا فعل شكر صريح ومباشر للنساء، وكل واحدة من النساء، من اجل ما يمثّلنه في حياة البشريّة ....

ويردف البابا قائلا: "شكرًا لك أيّتها المرأة، فقط لأنّك امرأة، تغنين بشعورك وبانوثتك فهم العالم وتسهمين في قيام علاقات بشريّة على الحقّ كلّه" (رسالة عد ٢).

ويقوم البابا بعرض تاريخي مقرًّا بإجحاف تجاه المرأة، فيقول: "بيد اني اعرف ان الشكر لا يكفي. فلقد أخضعت المرأة عبر التاريخ، ويا للأسف، لشروط قاسية جدا، جعلت في كل زمان ومكان طريقها صعبة، وانتقصت من كرامتها، وشوّهت ميزاتها، وأدّت في الغالب إلى تهميشها بل إلى استعبادها. كل ذلك منعها من ان تكون هي ذاتها بكل معنى الكلمة وحرم البشرية كلّها من خيور روحية اصيلة. ليس من السهل حقا ان نحدد بالضبط المسؤوليات، بالنظر لثقل الرواسب الثقافيّة التي كوّنت عبر الأجيال الذهنيات والمؤسسات. لكن اذا كنّا لا يمكننا، في هذا المجال، وبخاصة في اطار بعض الاوضاع التاريخية، ان ننكر مسؤولية الكثيرين من ابناء الكنيسة، فانا آسف لذلك كثيرا. وعسى ان يؤدي هذا الاسف، في الكنيسة كلّها، إلى القيام بجهد في سبيل الامانة المتجددة لالهام الإنجيل فإنّه في كلامه بالتحديد عن تحرير المرأة من كل اشكال الظلم والهيمنة، يحمل رسالة تبقى واقعية وتقتبس من موقف المسيح ذاته. فلقد تجاوز القواعد المرعيّة في ثقافة ذلك الزمن، وكان له من النساء موقف الانفتاح والاحترام، والترحيب والحنان مشيدا في ذلك بالكرامة التي كانت للمرأة في قصد الله وحبّه (عدد ٣).

ويدعو البابا إلى المساواة الفعليّة في الحقوق الشخصيّة ويشجب العنف الجنسي على المرأة وكأنّها في خدمة لذة الرجل.

ويشرح البابا نص خلق المرأة في سفر التكوين، فيتيقن ان الإنسان الذكر رغم وجوده محاطا بخلائق لا عد لها في العالم المنظور، يجد نفسه وحيدا، فيتدخل الله ليخرجه من هذه الوحدة. عون ليس من جهة واحدة بل هو متبادل. فالمرأة تكمّل الرجل كما يكمّل الر جل المرأة، المرأة والرجل هما متكاملان. المؤنث يحقق الانساني بشأنه شأن المذكر. وعندما يتكلم سفر التكوين عن "العون"، فانه لا يعني الفعل فقط، بل الكينونة (عدد ٧).

P. 36/38
26-APR-2006 17:06

ثانيا — الدين والأسرة

أعود في مداخلتي هذه إلى نصّين كنسيّين أساسيّين هما رسالة البابا يوحنا بولس الثاني إلى الأسر، في مناسبة سنة الأسرة ١٩٩٤، ورسالة بطاركة الشرق الكاثوليك حول "العائلة مسؤولية الكنيسة والدولة" (٢٠٠٥).

قال البابا يوحنا بولس الثاني في رسالته "فادي الإنسان" (١٩٧٩)، إنّ الإنسان طريق الكنيسة، أي إنّ هذه الأخيرة تسلك الطرق التي يسير فيها الإنسان. والأسرة، في هذه الطرق المتعددة، هي الأولى والأهمّ. ومهما يكن وضع الإنسان، فإنّ العائلة تظلّ أفقه الوجوديّ. وإنّ يسوع عاش في عائلة بشريّة وترعرع فيها، وكان خاضعًا لوالديه، وفق الإرادة الإلهيّة.

بناء على كلّ ذلك، تقوم "طريق الكنيسة" على الإنسان والأسرة معًا.

فالحقيقة عن الأسرة كامنة في الوحي الإلهيّ وفي تاريخ الخلاص، ونرى الربّ يسوع يبدأ حياته العلنيّة، على ما يخبرنا إنجيل يوحنا، في عرس قانا الجليل.

فالزواج مؤسسة طبيعية والهية، وفيها يخرج الإنسان من فرديّته ويتوجه نحو الآخر فيعطيه نفسه بل يضحّي بنفسه في سبيله. بل يكون لاإنسان بالحب مستعدًا حتى أن يموت في سبيل الآخر، لأنّه بالحب فقط يُروي أعمق ما في كيانه من تطلعات، ويوجد الظروف التي تصنع سعادته.

وقد دافعت الكنيسة عبر القرون دفاعا راسخا عن صلاح الزواج وقدسية الأسرة ردًا على بعض الهرطقات التي كانت ترى في الزواج "مملكة الشر"، وعلى تيارات "الهيدونية" أو "طلاب المتعة" الذين يرون في الأسرة انتقاصًا من الحرّيّة الشخصيّة ومصدرًا للمتاعب، ومن ثم حدًا للمتعة.

إنّ الكنيسة تدرك أنّ خير الشخص والمجتمع وخيرها يمرّ عبر العائلة. فالعائلة مجتمع طبيعي وجد قبل الدولة أو أيّة جماعة منظّمة. وتعتبر الكنيسةُ العائلةَ جماعة حبّ وتضامن، قادرة على أن تنقل القيم الثقافية والخلقيّة، والدينية والاجتماعية.

والعائلة هي الخليّة الأساسيّة للمجتمع فيها يجد المرء أسسًا ثابتة للحرية والطمأنينة والأخوّة وسط المجتمع.

26-APR-2006 17:07 P.37/38

وتعتبر العائلة كنيسة مصغرة أو كنيسة منزلية، وبهذه الصفة هي خليّة الكنيسة الأساسيّة، فهي جماعة الإيمان والرجاء والحب، فيها تتحقّق الشركة بين الأشخاص على صورة الله، ويعاش التفاني وبذل الذات والانسجام على مثال اتحاد المسيح بالكنيسة.

وتقوم العائلة، بالنسبة للكنيسة، على سرّ الزواج. إنّ سفر التكوين يوقفنا على هذه الحقيقة عندما يثبت، بالنسبة إلى تأسيس الأسرة بالزواج، "أنّ الرجل يترك أباه وأمّه ويلزم امرأته فيصيران جسدًا واحدًا" (تك ٢: ٢٤). وفي الإنجيل، يكرّر المسيح، في نقاشه مع الفرّيسيّين، هذا الكلام نفسه ويضيف: "فليسا هما اثنين بعد ولكنّهما جسد واحد. وما جمعه الله فلا يفرّقه إنسان (متى ١٩: ٦). إنّه يكشف مرّة أخرى عن المضمون القياسيّ لأمر كان موجودًا "منذ البدء" (متى ١٩: ٨)

ويقوم سرّ الزواج على رجل وامرأة. فهذه هي إرادة الربّ. والأمومة تفترض الأبوّة بالضرورة، وعلى ذلك فالأبوّة تفترض الأمومة بالضرورة: إنّ ذلك ثمرة الثنائية التي جعلها الخالق، منذ البدء، في الكائن البشريّ. وتدعو الكنيسة الزوجين إلى الأبوّة والأمومة المسؤولتين، اللتين تتنبهان إلى قصد الله في الخلق والى أهميّة نموّ سرّ الشراكة بينهما وفي العائلة ونموّ الأولاد.

وبعد الحديث عن الرجل والمرأة ومسؤوليتهما في العائلة، يتحدث البابا عن مسؤولية الأولاد باكرام الأب والأم، فيذكّر بالوصيّة الرابعة من الوصايا العشر. فهذه الوصيّة مرتبطة كلّ الارتباط بوصيّة المحبّة.

خاتمة

هذه كانت، وفق الوقت المخصص لنا، بعض النقاط التي بيّنت ماهيّة تفكير المسيحيّة بالمرأة والأسرة.

26-APR-2006 17:07 P. 38/38